عروس صاحب الجلالة فرعون الصغير

للأستاذ دريني خشبة

استيقظ أهل طيبة فى هَـدْأَة الفجر الأول من أيام الربيع على أصوات طبول فرعون التى أخذت تدوى فى الأفق ، وترن فى ظلال المعابد ، وتنسكب مع الشفق الوردى في أذنى أمون رع[١] وترف فوق مسلات الكرنك مع هُورس[٢] الكريم

واستيقظت الآلهة كلها تبارك الجيش ، وتحرس صاحب الجلالة وتغسل الأعلام المصرية المنَشَّرة بدموع الندى ... تلك الدموع العطرية التى كانت تترقرق من أعين الربيع مما هزّه من فرح ، وما سوى فيه من شباب فرعون

واهتز حابى[٣] العظيم تحت الأسطول اللّجب الذي صدحت موسيقاه لتمتزج بموسيقى الجيش ، فتتدفق فى قلوب الشعب المزدحم فوق العُدْوَتين[٤] ألحاناً من الحماسة ، ونورانية من الحب ، وقُدسيةً من الولاء ، تنعقد فوق هامة المليك هالةً من إعزاز رعاياه ، وإكليلاً من وفاء الأمة النبيلة صاحبة المجد ...

ويلٌ للحثيين ! ! [٥]

لقد أغراهم بمصر أن رأوا على عرشها الملك الشاب تحتمس فغرتهم الأمانى ، وهاجت فى قلوبهم الأحقاد القديمة ، ووسوست لهم شياطينهم أنها الفرصة النادرة التى يدركون بها ما لم يدركوه فى عهد آبائه ، فتألبوا ، وثاروا ، وجمعوا الجموع لغزو مصر

ولكن ... طاشت أحلامهم ... ففوق عرش النيل ملك ، وفى مصر أمة ، وملء الوجهين قلوب فياضة بحب فرعون يوجهها أنّى يشاء ... وها هو ذا الجيش تنتظم صفوفه كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً ، وها هو ذا الأسطول يتهادى على أعراف الموج فى النيل نحو الشمال ... وها هى مصر كلها تحملق مُغضَبة نحو المشرق ، ساخرة مستهزئة بأعدائها الكلاب الذين طالما حطمتهم فى ديارهم ، وألبستهم لباس الذل والخوف ، فلما صفحت عنهم إذا هم ينْفِرُون !

* * *

واستيقظت حَتَاسُو ، عروس فرعون ، وفتحت نافذتها لتشهد المنظر الرائع ، ولترى إلى زوجها الشاب يستعرض الجيش وقد استوى فوق جواده الأبيض المختال ، وراح يتهادى بين صفوف الجند ، كأنما يرسل من عينيه المصريتين سحراً في قلوب المحاربين ، ومن فوق رأسه تاج المملكة المتحدة يشع سناه فى غبشة الصبح ، فكأنما يملأ الآفاق ذَهَباً

لقد كانت ليلة طويلة دجوجية ، تلك الليلة التى قضتها حتاسُو بين وصيفتيها الناعستين الحالمتين ، تفكر فى مليكها الذى أقبل فى المساء يودعها ويتزود منها لرحلة الغد إلى بلاد الحثيين ... لقد كانت تراه ما يزال جالساً إليها يحدثها ويسامرها ، ويرسل عينيه الحبيبتين فى عينيها المذعورتين ، ويرسل معهما روحه فتعانق روحها ، وقلبه فيتحسس قلبها ، وشعوره الفائر ، فيتحد بشعورها . . . ثم تذكر رنين صوته العذب الموسيقى يترقرق فى أذنيها فيملؤها بالأحلام ، ورنين قبلاته الحارة الطاهرة تهمهم على فمها الشتيت الحلو فتحمل إليه سرّ الخمر الإلهية التى لا غَوْل فيها ولا تأثيم ... فتبكي ... ! ولم لا ... ؟ أليس من البكاء بكاء تحمل دموعُه رسالة الروح فتذهب بها إلى الله اللطيف العلى ، فتكون عنده صلاةً ليس مثلها صلاة ! ! ذلك بكاء المحبين ...

* * *

ورحل فرعون الشاب بأساطيله وجنده

ولكن طيبة العظيمة لم يدم لها هذا الصفو الجميل الذى ودعت

---

(١) أمون إله طيبة ورع إله منف واتحدا فكونا إلهاً واحداً بهذا الاسم

(٢) هورس هو ابن آزوديس وكان يرمز له بالصقر

(٣) حابى هو اسم النيل وربه فى الميثولوجيا المصرية

(٤) عدوة النيل شاطئه

(٥) ألد أعداء مصر فى الزمن القديم

تحت بنوده ملكها . . . ذلك أن أم العروس المصون شوهدت فى فجر اليوم الثانى راكعة فى المعبد الكبير أمام المذبح ، بين يدى أمون رع ، تبكى وتصلى ، وتتوجع وتتصدع وتشكو إلى الله بثها الذى لم يعرف أحد سببه

وقد وقف الكهنة حولها فى ذهول وخشوع ، ولم يجسر أحد منهم أن يسألها عما ألم بها ؛ بيد أن رئيس المعبد تقدم إليها آخر الأمر فى أدب وضراعة ، وربت قليلاً على كتفها ، ثم مد يده الواهية المعروقة إلى يدها المرتجفة المحزونة ، فنهضت وهى لا تكاد تبى مما يعصف بها من هم وشجو ...

وسار الكاهن الأكبر بين يديها إلى صومعته ؛ وكان الكهنة يتلون أوراد الفجر وأناشيد الصباح فتهتز جوانب المعبد بحسن إنشادهم وروعة ترتيلاتهم ، فتنهمر دموع الأم ، وتقف أمام هذه الصورة ، وبين ذلك التمثال باسطةً ذراعيها ، وداعية الآلهة ، متمتمة بكلام خفى غير مفهوم ...

— ماذا يا ابنتى ! فيم مجيئك فى هذه الساعة من الفجر ؟ وفيم هذا البكاء وتلك الصلوات ... ؟ تكلمى ... ! ألست أباك ؟

— تباركت أيها الأب . . . ولكن ليحضر نائب صاحب الجلالة ، فالخطب جلل ... وتكاد نفسى تتصدع ...

— نائب صاحب الجلالة ؟ أى خطب جلل يا أربابى ؟ ! أمون رع ! ! لطفك يارب القدس !

وأرسل الكاهن الأكبر رسوله إلى نائب الملك فجاء مهرولاً فى ثياب النوم ، وجعل يلهث من الفزع والتعب ، ويسأل الكاهن فيم أرسل إليه ، وماذا أصاب والدة الملكة ... فأشار الكاهن إلى الأم الباكية ، فالتفتت إليه مذهولةً وقالت :

— ابنتى ! ابنتى يا نائب صاحب الجلالة !

— الملكة !

— بل العروس !

— ماذا ؟ ماذا أصابها ؟

— لا أدرى ... ! إنها ليست فى القصر ! لا هى ، ولا وصيفتاها !

— هل فتشتِ الغرف ؟

— كلها !

— والحديقة ؟

— وطيبة جميعاً ...

— جريمة ! إن فى الأمر جريمة ... لا بد من تبليغ مولاى !

وكاد النائب المسبوه يرسل صيحة ذعره فى المعبد ، لولا أن أشار إليه رئيس الكهنة ، فصمت ... وقال فتاح الكاهن الأكبر :

— أتحسب أن من الخير أن تحمل هذا النبأ المروّع إلى ملكٍ ذهب أمس ، وأمس فقط ، على رأس جنوده ليؤدّب أعداءه ؟ لا ، لا ، ليس هذا عندى برأى ... إنها أول حربٍ يشنها الملك ، فكيف نُثنيه بمثل هذا عن عزمه ؟ !

— فما الرأى إذن ؟

— اهدأ يا نائب صاحب الجلالة ، فنحن بين يدىْ أمون ، ويوشك رعٌ أن يهدينا بسنانوره ولألاء حكمته

ويرى الكاهن الأكبر أول شعاعة من شعاع الشمس تدخل من كوة الشرق فى الصومعة ، فيأمر المؤذن فيؤذن بصلاة جامعة ، لرع ... رب المشرقين !

وينتظم الكهنة صفوفاً أمام المذبح الكبير ، ويبدأ رئيسهم إنشاده ، فيأخذون فى ترتيل جميل ، وتركع (تى) ، ويركع آنبو ، ويصليان مع الكهنة ... حتى إذا فرغ الجميع من صلاتهم خلا رئيس المعبد إلى آلهته ، ثم أقبل على نائب الملك وأقبل على تى بوجه مشرق متهلل وهو يُسبِّح ويقول : « بخير ... »

* * *

« بخير ؟ ! وأى خير فى أن تختفى عروس فرعون ، فإذا آب من حربه لم يجدها ؟ ومنذ الذى يستطيع أن يلقاه حين يصل إلى طيبة فلا تكون عروسه أول من تلقاه بها حاملةً له باقةً ناضرةً من أزهار اللوتس المقدسة ؟ وآسفاه عليك يا ابنتى ؟ ووآسفاه على الأحلام الضائعة ! »

وهكذا راحت تى تندب حظها ، وتذرف الدمع من أجل ابنتها ، وكلما زارها كبير الكهنة فواساها لم تلق بالها إليه ،

حتى اسّاقطت نَفْسُها أَنفُساً ، وحتى براها الحزن ، وشفّها الوجد ، وأوهاها طول البكاء

وكتموا الخبر حتى لا يصل إلى فرعون فيفت فى عضده ، ويوهى من جَلَده ، ويكون سبباً فيما لا يوده له إلا عدوه

ثم أرسل تحتمس رسالة إلى عروسه أخذتها أمها ، فلما قضتها ، انهمرت عيناها بالدموع الحرار من أجل حتاسو ، التى أرسل الملك يخبرها أنه اجتاز حدود مصر إلى بلاد الأعداء ، وأنه يقبلها على هذا البعد الشاسع بينهما ، ويسألها أن تصلى له وتركع بين يدى آمون رع من أجله ... ومن أجل مصر ... التى يفتديها الجميع ، ويعيش من أجلها الجميع ، ويموت فى سبيلها الجميع

واضطرت الأم المحزونة أن تزور رسالة تبعث بها إلى صاحب الجلالة على لسان عروسه تشكره فيها وتتمنى له الخير والنصر ؟ وكانت الرسالة جافة خالية من روح الحب الذى يملى على صاحبه ويوحى إليه ، ويُنضر طِرْسه بألوان الورد ، ويعطره بأنفاسه ... فلما قرأها تحتمس هاجت الوساوس فى قلبه ، وإن يكن قد تجلد وصبر

ولقى فرعون أعداءه ...

وكانت جيوشهم تغمر السهل والجبل ، وقنابلهم [1] تزحم البر والبحر ، وهم على كثرتهم سابغون فى دروعهم مُقَنَّعون فى حديدهم ، تصهل خيلهم فتتجاوب أصداؤها فى جنبات الوادى وترغى فتشق عنان السماء ... وقد آنس الملك ضعفاً وقلة فى ميسرتهم فانقض عليها بميمنته ، واستطاع بعد عناء أن يزحزحها ، لكن المدد الذى وصل من وراء المجنّبتين أفسد على فرعون خطته ، فتقهقر قليلا ليأمن التفاف الأعداء ، الذين غرهم نكوص ميمنة مصر ، فهجموا بجموعهم كلها ؛ وحمى وطيس القتال فى القلب والميسرة والميمنة ... وثار النقع ... وارتفع أنين القتلى فى كل مكان ... وانطلق عزيز النيل يصيح فى جنوده ويحرضهم ويُثبت أقدامهم ، ويذكرهم بمجد بلادهم ... وكانت كلماته تثير فيهم الحمية ، وتلهب صدورهم بنار الوطنية ، فيهجمون غير مبالين ، وينقضون على أعدائهم غير هيابين ، حتى زلزلوهم عن مراكزهم . وزادهم حماسة أن رأوا قلب الحثيين ينتقض على قادته ، ويولى بعض عساكره الأدبار ، فاقتحموا وراءهم الحلبة وأوقعوا فيهم حتى أثخنوهم ... وأبصرت ميمنة الحثيين وميسرتهم ما حل بالقلب فهتوا ، وخارت عزائمهم ، وساعد ذلك المصريين فانقضوا عليهم كالصواعق من كل مكان ...

وظن المصريون أنهم ظهروا على أعدائهم فجعلوا يتصايحون ويهتفون ، ويهنىء بعضهم بعضاً ، والعدو مايزال صامداً فى مكانه . وفطن قائد الحثيين إلى ذلك فبدا له أن يذهب فى كوكبة من أشجع فرسانه فيلتف بمركز القيادة فى صفوف المصريين الخلفية وسرعان ما أنفذ الفكرة

وكادت حيلة القائد تنجح ، لولا أن فطن إلى ذلك أحد فرسان المصريين فصاح ببعض ضباط الجيش قائلا : « أيها الجنود دافعوا عن ملككم . . . الحثيون يوشكون أن يحدقوا به » . وتلفت الضباط فرأوا كوكبة الحيثيين مسرعة إلى مركز القيادة

فصاحوا بجنودهم ، وانطلقوا فى إثر الفارس الذى نبههم فاشتبكوا مع الأعداء فى ملحمة هائلة ، أبلى فيها بلاء حسناً ... وهرب الحثيون ... ولكن الفارس المسكين سقط جريحاً ، وانبطح من فوق جواده بين القتلى المديدين ... وتقدم إليه فارسان شجاعان فحملاه إلى المعسكر حيث ضمدا جراحه وجلسا عند سريره يواسيانه

وانتصر فرعون مصر ، وطهر الأرض من رجس الحثيين !

وعاد إلى معسكره فمنح الفارس الجريح أسمى ألقاب الجيش ورفعه إلى مرتبة قائد ، ثم ذهب إليه بنفسه فأبدى له إعجابه بشجاعته وحسن بلائه

* * *

وذاعت أنباء النصر فى مصر فغمر الفرح رعايا فرعون ، وراح الجميع يقيمون معالم الزينة على مساكنهم ومتاجرهم ، وانطلقت زرافات الكهنة ترتل أورادها فى شوارع المدن ، وبدت طيبة فى أبهى حللها ، ورفرفت الأعلام على الهياكل ودور الحكومة ، وتدفق حابى بالبركات فى أرجاء البلاد

وذهب نائب الملك وفى معيته كبير الكهنة للقاء صاحب الجلالة على حدود البلاد ، وليجتباه الخبر المفزع الهائل ... خبر

(١) القنابل فرق الجيش

اختفاء عروسه ... أو ليكونا على الأقل معينين له على تحمل الصدمة ...

وقد سألها جلالته عنها حين لقيهما فكتما عنه الأمر ، لتم للبلاد أفراحها ؛ واعتزما ألا يقولا له شيئاً حتى يستقر فى عاصمة ملكه

وكم حدّث عزيز مصر نفسه أنه كان أحجى بحتاسُو لو خرجت إلى الحدود للقائه ، كما خرج نائبه وكبير الكهنة وكبراء الدولة ... ...

لكنه مع ذاك تجلد واصطبر ...

ووصل إلى طيبة ... ولكن حتاسو لم تسرع للقائه ، فما ذا جرى ؟ ! وبدلاً من أن تذهب حتاسو إلى قصر الملك لتهنئه ، فقد ذهبت أمها الواهية المتداعية . فما إن وقعت عيناه عليها حتى سألها :

— ماذا ؟ أين حتاسو ؟ ؟

فتبسمت الأم المذهولة وقالت :

— فى سريرها يا مولاى !

— فى سريرها ؟ أهي مريضة ؟

— أجل يا مولاى

ونظر نائب الملك إلى كبير الكهنة ثم راح يسر إليه : « يا الآلهة ! إن تى وفية للملك مخلصة . . . إنها تأبى أن تكون أول من يبلغ الملك نبأ اختفاء عروسه ! ! »

قال الملك :

— إذن نمضى نحن فنراها

* * *

ودخل صاحب الجلالة غرفة حتاسو ، فوجدها طريحة الفراش ، وقد ربطت فخذها وذراعها بأربطة وضمادات . . . وكانت تغط فى سبات عميق ، وكان وجهها مع ذلك مشرقاً جميلاً ساحراً كعادته . . . ولم يملك محتمس إلا أن ينحنى فيطبع قبلة اللقاء على فم عروسه ...

وانتفضت حتاسو من سحر القبلة العزيزة ، ولما فتحت عينيها ، رأت صاحب الجلالة منحنياً فوق وجهها ، ودمعة غالية تترقرق فى مقلتيه ... فهبت من سريرها باسمة سعيدة ، وأنشأت تقول :

— أهنئ مولاى بالنصر الحاسم

وتحدرت الدموع من عينى الملك ، ثم قال لعروسه :

— ماذا بك يا حتاسو ! ؟

فقالت له :

— لا شىء ! جروح هينة من معركة تجدُّو ! !

— معركة تجدُّو ؟

— إى يا مولاى ... تجدُّو ... تجدُّو ! ألا تعرف الفارس أحميس الذى رفعته إلى رتبة قائد ؟ هو أنا ! وهاتان صاحباي :

* * *

وبعد شهر واحد لبست البلاد زخرفها وازينت واحتفلت بزفاف صاحبى الجلالة .

درينى خشبة

فى أصول الأدب

للأستاذ احمد حسن الزيات

كتاب جديد فريد فى نوعه . يشتمل على أبحاث تحليلية طريفة فى الأدب العربى وتاريخه . منها تاريخ الأدب وحظ العرب منه . العوامل المؤثرة فى الأدب . أثر الحضارة العربية فى العلم والعالم تاريخ حياة ألف ليلة وليلة وهو أوفى بحث كتب فى هذا الموضوع إلى اليوم . ثم قواعد تفصيلية للرواية التمثيلية الخ الخ ...

يطلب من إدارة مجلة الرسالة

وثمنه ١٢ قرشا